الباب التاسع

إمام مصر

"يشفع يوم القيامة الأنبياء ثم الشهداء ثم العلماء"

"**حديث شريف**"

obeikandl.com

الفصل الأول

الأيام الأخيرة

غضب الحمقى من المتعصبين لمهذ مالك من أجل الكتاب الذي وضعه الشافعي في خلاف مالك، ففزعوا إلى الوالي يطلبون إخراجه من مصر. وكان السري بن الحكم واليا على مصر، من قبل المأمون، يقدم الشافعي على نفسه ولا يؤثر عليه أحدا فلم يكن أذنا للحمقى، ولم يصب الإمام من أذاهم مثلما أصاب ضحايا المتعصبين الذين زخر التاريخ بآثامهم، وبالمثلات يحدثونها في طلائع التقدم.

ولم يكن الإمام ليلقي باله إليهم ولا إلى الأذى لو وقع، فلقد كانت تستأثر به أحاسيس المسئولية عن رسالته، فلا تربطه بصغار المتعصبين وسفاهات المتنطعين. وكان بصيرا بما يجب لسياسة الناس وسياسة التعليم من مصابرة وجلد.

لم تكن تربط الشافعي بشجون الحياة اليومية إلا تباريح سقامه، ونزيفه الذي لا يخف ولا يتوقف، وكانت كافية لتهدم الطود الأشم.

أعلن إمام المسلمين في أخريات أيامه – في ورع لا في توجع – أنهم "يقولون إني إنما أخالفهم للدنيا.. وكيف يكون ذلك والدنيا معهم؟ وإنما يريد الإنسان الدنيا لبطنه وفرجه، وقد منعت ما ألد من المطاعم؟ ولا سبيل إلى النكاح – يعني لما كان به من البواسير – ولكن لست أخالف إلا من خالف رسول الله".

قيل إن فتيان بن أبي السمح – وكان من أصحاب مالك، فقيها من أشعث الناس في المناظرة – وقعت بينه وبين الشافعي محاورة. فبدرت من فتيان بادرة، فلم يرد عليه الشافعي.. فرفعها رافع إلى الأمير السري فطلبه وعزره. وأمر أن يطاف به على جمل، وبين يديه مناد ينادر: هذا جزاء من سب آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم..

وقيل إن قوما تعصبوا لفتيان بعد ذلك، فقعدوا لحلقة الشافعي كل مرصد، حتى خلت من أصحابه، وضربوه فحمل إلى منزله، وبقي فيه عليلا حتى مات.. وهو قول غير معتمد.

وقالوا إن عيسى بن المنكدر – الذي تولى قضاء مصر سنة ٢١٢ إلى سنة ٢١٤ بعد وفاة الشافعي – صاح بالشافعي يوما: دخلت هذه البلدة وأمرنا واحد ورأينا واحد ففرقت بيننا وألقيت بيننا الشر. فرق الله بين روحك وجسمك.

ومن قبل الشافعي صبر النبي على الأذى والسفاهة، وصنع مثله أبو حنيفة وأترابه وويل لعالم أمر من جاهله. والجاهل عدو نفسه. والعلم لا يخذله الأدعياء ولا الأعداء.

ولقد كانت بهذا القاضي خفة وفسالة. خاصم إليه رجل فتبسم. فأمر بلطمه فلطم! وكانت تفرخ الأضاليل في خياله، وتفرط الفرطات منه في الأحكام. اختصم إليه رجلان. فقضى لأحدهما على صاحبه. ثم قال له: قم فاجعل رجلك على خده، تذله بالحق!!

هذه الفرطات في حق الشافعي وأشد منها، من القاضي ومن أخف منه، عناها معاوية يوم قال: والله لا أحمل السيف على من لا سيف له، فإن لم يكن من أحدكم سوى كلمة يقولها ليشتفي بها، فإني أجعل له ذلك دبر أذني وتحت قدمي.

أما الشافعي رضي الله عنه فمثله عبد الله بن عباس. شتمه رجل فقال: "إنك لتشتمني وفي ثلاث. إني لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يعدل في حكمه فأحبه. ولعلي لا أقاضي إليه أبدا. وإني لأسمع بالغيث يصيب البلاد من بلدان المسلمين فأفرح به وما لي سائمة ولا راعية. وإني لآتي على آية من كتاب الله تعالى فوددت أن المسلمين يعلمون منها مثل ما أعلم". وكلاهما كان مثله الأعلى سيد المرسلين بصبره على الأذى والسفاهة. قال: "ألا أدلكم على أشدكم؟ أملككم لنفسه عند الغضب".

والشافعي هو القائل: "ما نظر الناس إلى شيء هم دونه إلا بسطوا ألسنتهم فيه".

ولم يكن الخلاف الفكري بين المتفقهين ليخف.. والصراع العفيف عرض القوة وسيحتدم في مجلس الأخشيد فيما بعد. ويثير الشغابون الرهج، فيجري بين المتناظرين والحضور لغط شديد، فيقول بعد إذ ينصرفون: (يجري هذا في مجلسي! كدت والله آخذ بعمائهم).

وسنشهد بعد أكثر من قرن القتال بين تلاميذ الشافعي وتلاميذ مالك في الجامع العتيق. ونرى للمالكية خمس عشرة حلقة، وللشافعية مثلها، ولأصحاب أبي حنيفة حلقا ثلاثة. وسيشهد المسلمون من تعصب الحمقى للمذاهب عجبا. قالوا: وجد الوالي الحنفي في بلاد ما وراء النهر، إذ هو يخرج للصلاة في الصبح، مسجدا للشافعية فقال: أما آن لهذه الكنيسة أن تغلق؟ فسد أتباعه الباب بالطين واللبن!!

وكان أهل جيلان (بلاد ما وراء خراسان) حنابلة. إذا دخل عليهم حنفي قتلوه وجعلوا ماله فيئا للمسلمين!

قال المقدسي (كان الأندلسيون لا يعرفون إلا القرآن والموطأ. إذا وجدوا تابعا من أتباع أبي حنيفة أو الشافعي طردوه من أسبانيا. والويل لمن يصادفونه من المعتزلة أو الشيعة أو من طائفة تنتمي لمذهب ما. فإنهم كثيرا ما كانوا يخمدون أنفاسه).

أما ابن رشد فانتهى به الأمر إلى نفيه إلى بلاد المغرب!

وفي الأندلس أحرقت كتب ابن حزم وفي.. لكن فكره بقي، وفني الذين ناوءوه.

وليس الذي جرى في مصر – الفسطاط – إلا قليل بالنسبة لما جرى ببغداد في العصر ذاته، من تجييش الجهل وتحريش الحمق، وتنكيل فريق بفريق، فنال أهل السنة أذى كبير في عهد المأمون والمعتصم والواثق وزلزلت محنة خلق القرآن الطمأنينة في القلوب وامتد لهيبها من بغداد، فأسعر البلاد، وأصاب أعظم تلاميذ الشافعي بمصر وبغداد، حتى إذا أتم قانون القوة دورته، كان رد الفعل مساويا للفعل في المقدار ومضادا له في الاتجاه. فكان الحنابلة لهم بمثل ما كالوهم.

***

أحس الشافعي باقتراب رحيله إلى عالم الخلد في العام السابق على وفاته فحرر وصيتين اثنتين في سنة ٢٠٣ [٩٠].

---

(٩٠) واحدة: في صفر سنة ٢٠٣ تصدق فهيا على ولده (أبي الحسن) بن محمد بن إدريس بأربعمائة دينار وثلاثة أعبد وأمة ومسكنين ودملجين وخلخالين وقلادة من ذهب وحلي من ورق). هذا في مصر، وفي مكة بمسكنه الذي ٠بمهبط ثنية كدي من مكة قابلة دار مثيرة على يسار الخارج من مكة في شعب محمد بن

obeikandl.com

إدريس. وهما المسكنان اللذان أحدهما المسكن الذي بفناء دار محمد بن إدريس العظمي.. أحد هذين المسكنين المسكن الذي بناه محمد بن إدريس إلى جنب المنزل الذي يعرف بجابر بن محمد – وذلك المنزل أحد حدوده كدي، وحده الثاني الرحبة التي بفناء دار محمد بن إدريس العظمي. والحد الثالث طريق شعب محمد بن إدريس والحد الرابع طريق الشعب العظمي إلى ذي طوى.

والمسكن الثاني سقائف حجارة نجيرتها وحجرتها على رأس الجبل الذي فيه الخزانة الصغيرة. وهذا المنزل الذي يعرف بفلان بن عبد الجبار.. ما عاش أبو الحسن.. لا حق فيها لأحد معه حتى تعتق أم أبي الحسن بن حمد، فإذا أعتقت أم أبي الحسن بن محمد بن إدريس كانت أسوته في هذين المسكنين.. فإذا انقرض أبو الحسن.. وولده، فهذان المسكنان لأم أبي الحسن.. فإذا انقرضت فهذان المسكنان لفاطمة وزينب ابنتي محمد بن إدريس فإذا انقرضوا فهذان المنزلان صدقة على آل شافع بن السائب فعلى من حضر مكة من بني عبد المطلب بن عبد مناف.. فعلى الفقراء والمساكين.. شهد على إقرار محمد بن إدريس بما في هذا الكتاب وعلي أن أبا الحسن بن محمد المولود بمصر متصدق عليه بما في هذا الكتاب على ما شرط فيه، صغير، يلي محمد بن إدريس أبوه القبض عنه والإعطاء منه...

والثانية: كتبها (محمد بن إدريس بن العباس الشافعي (في شعبان سنة ثلاث ومائتين) فجعل تنفيذ وصيته لشخص عينه ليعتق عبدا خلفه بمكة – ويعتق "فوز" الجارية الأندلسية التي ترضع ابنه أبا الحسن عندما يبلغ السنتين) – وأوصى أن تعطى أم أبي الحسن أم ولده دنانير، وأن تعطى جاريته مسكة السوداء وصية لها. وأوصى أن يقسم ثلث ماله أربعة وعشرين سهما فيوقف على دنانير سهمان من أربعة وعشرين سهما من ثلاث ماله ما عاش ابنها وأقامت معه ينفق عليها منه، وإن مات ابنها أبو الحسن وأقامت مع ولد محمد بن إدريس فذلك لها. وإن أقامت فوز مع دنانير وقف على فوز سهم من أربعة وعشرين من ثلث مال محمد بن إدريس ينفق عليها منه ما أقامت معها ومع ولد محمد بن إدريس فإن لم تقم فوز قطع عنها ورد على دنانير.. وأوصى لفقراء شافع بن السائب بأربعة أسهم من أربعة وعشرين سهما من ثلث ماله.. وأوصى لأحمد بن محمد الوليد الأزرقي بستة أسهم من أربعة وعشرين سهما من ثلث ماله. وأوصى أن يعتق عنه

رقاب بخمسة أسهم من أربعة وعشرين سهما من ثلث ماله. ويتحرى أفضل ما يقدر عليه وأحمد. ويشتري منهم مسعدة الخياط إن باعه من هو له فيعتق. وأوصى أن يتصدق على جيران داره التي كان يسكن بذي طوى من مكة. وأوصى لعبادة السندية وسهل وولدهما مواليه وسليمة مولاة أمه.. وجعل إنفاذ ما كان من وصاياه بمصر إلى الله تعالى ثم إلى عبد الله بن عبد الحكيم القرشي ويوسف بن عمرو بن يزيد الفقيه وسعيد بن الجهم الأصبحي.. وأوصى أن يلقحوا ابنه أبا الحسن متى أمكن إلحاقه بأهله بمكة. ولا يحمل بحرا وإلى البر سبيل بوجه. وينفذوا ما أوصاهم به بمصر ويجمعوا ماله ومال أبي الحسن.. وهم قائمون بدين محمد بن إدريس قبضا وقضاء دين. وجعل محمد بن إدريس ولاء ولده بمكة وحيث كانوا إلى أبي عثمان وزينب وفاطمة بني محمد بن إدريس (اشهد محمد بن إدريس الشافعي في مرضه أن سليمان الحجام ليس له وإنما هو لبعض ولده.. وقد أوصيت بثلثي ولا يدخل في ثلثي مالا قدر له من فخار وصحاف وحصر من سقف البيت وبقايا طعام البيت وما لا يحتاج إليه مما لا خطر له على ذلك).

أوصى الشافعي هذه الوصية إذ أحس دنو الأجل وأوصى بثلثه، تعبيرا فصيحا عن ثلث ماله، إلى وجوه البر التي حددها.

ولا يدخل في الشك متاعه من فخار وصحاف وحصر مما لا خطر له كما يقول. فقد كان متاع بيت إمام المسلمين في أوج مجده – لا خطر له.. فخارا أو صحافا وحصرا.. لا سرر ولا نمارق ولا زرابي! وهو يبر أهله وجيرانه ومواليه، وموالي أمه وأبيه، ويحسب حساب أم ولده ومرضعة أبي الحسن – ولا ينسى أن يعتق رقابا بخمسة أسهم كاملة، ويخص من الرقاب رقبة مسعدة.

ذلك وغيره من وجوه المعروف والفضل يتجلى لقارئ الوصية. نقف الآن عند أمور منها. مثل: أن عبد الله بن عبد الحكم يظهر في الوصية متصدرا هيأة المنفذين، وهو مظهر الصلة بين الإمام الشافعي وبين عالم المالكية الكبير، مع ما كان بين حلقات المذهبين من تناوش. فكان ذلك درسا في حرية الفكر وتحية متبادلة. ومثل أن زوجته حميدة حفيدة عثمان بن عفان لا تبرز في الوصية بل تبرز أم ولده دنانير وطفلها الذي لم يمض عليه عامان، مما قد يشير إلى أن حميدة بارحت الدنيا بمصر أو قبل، وأن الإمام قد رزق بطفل من

وألح عليه الداء في الأيام الأخيرة، فتجمعت عليه آثار الجهد الذي أكل جسمه.

وكان نزيف البواسير يخرج منه، وهو راكب، حتى يملأ ثوبه وخفه وسرجه، ثم قويت العلة حتى ثقبوا الفراش له، ووضعوا الطست تحته.. وكان رحمه الله يقول في المرض: "اللهم إن كان لك فيه رضا، فزد"...

كان يستطيع أن يبقى في مكة أو بغداد فتضرب إليه آباط الإبل من كل فج عميق، لكنه آثر أن يجوب السهل والحزن، على ظهور العيس المرهقة القلقة، من أقصى الأرض إلى أقصاها، يعلم ويتعلم، غير قانع بشرح نظرياته التي استحدثها، ففرض على نفسه الكفاح البدني والعقلي الدءوب، إن دفاعا وإن هجوما. إن مرتحلا وإن مقيما. إن مسافرا وإن مهاجرا. كل بلاد الإسلام عنده دار وادة.

وكان نضو أسفار، بلا مال، يذوي عوده ويذبل، حتى نفذت العلة إلى صميم جسده.. وهو مع ذلك يدرس ويكتب ويملي، ليل نهار. والتلاميذ منصبون إليه، متوافرون عليه، منخرطون في سلكه. لا يبرمه الجدل ولا تسئمه العلل – فليس أمامه إلا وجه الله يتغياه، وكأنما يسابق

دنانير وأن مشاعر الإشفاق على مصير الطفل الصغير – لا يحمل بحرا وإلى البر سبيل بوجه – تؤرق شيخا رجع بفكره القهقرى، نصف قرن مضى، على عودة طفل آخر يتيم إلى أهله بمكة، عمره عامان: كالطفل الذي أهمه يتما وعمرا، غير أن الطفل الحالي سيرجع من مصر ابن إمام المسلمين، في حين كان الطفل القديم راجعا من غزة يتيما ذات مترية في كنف أم لا يبرح الخيال ذكراها.

وأرجح الأقوال أنه مات فقيرا حتى يقال إنه طلب إلى الوالي تغسيله ليقضي ديونه. ولقد قال (أفلست ثلاث مرات فكنت أبيع قليلي وكثيري حتى حلي بنتي وزوجتي ولم أستدن قط).

الموت حتى لا تفوته فرصة لنشر فكره، ويواصل تفانيه، دقيقة بعد دقيقة، فيذيبه التفاني حبة حبة. ويرى فناء نفسه في سبيل الله بقاء للدنيا ورضوانا في الآخرة.

وفي هذه الساعات الأخيرة من حياته ترك وصيته العلمية: "ما ناظرت أحدا على الغلبة، وودى أن جميع الخلق يعلمون كتبي ولا ينسبون إلي منها حرفا" قالها يوم الأحد ومات يوم الخميس.

كان ناصر السنة، والتعليم سنة سيد المرسلين. فالشافعي لا يلتمس أن ينسب العلم إليه، ليذكر به أو يشكر عليه، وهو الذي يقول "أرفع الناس قدرا من لا يرى قدره". وهو يوصي بكتبه لجميع الخلق، ولا يخص المتفقهين ولا المسلمين. والإسلام – ومنه العلم – نزل للناس أجمعين.

***

ودنا الأجل وأقعده المرض، وانقطع عن الدرس وتهيأ للرحلة الأخيرة، القصيرة، من بين رحلاته الكثيرة الطويلة. دخل عليه تلميذه المزني قال: كيف اصبحت؟ قال: أصبحت من الدنيا راحلا وللإخوان مفارقا. ولكأس المنية شاربا. والله ما أدري روحي تصير إلى الجنة أو إلى النار فأعزيها.. ثم بكى مناجيا غافر الذنب وقابل التوب سبحانه.

قال:

فلما قسا قلبي وضاقت مذاهبي جعلت رجائي نحو عفوك سلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته بعفوك.. ربي.. كان عفوك أعظما
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل تجود وتعفو منة وتكرما

وكان برد الأيام الأخيرة زمهريرا في الفسطاط، فزادت سورة المرض قسوة من كلب البرد ودأب الجهد، على شيخ نهكته العلة. وخفت الجرس، وسكت الصنج، اللذان كانا صوته العذب.. وأمسى أعظم قارئ للقرآن بعد الصحابة المقدمين، عاجزا عن تلاوته بل في حاجة للآخرين يقرءون القرآن له!

***

وأسلم إمام المسلمين وجهه لله. وراح يعيش بين الدنيا والآخرة.. فلما كان المغرب ليلة مات قال قائل: ننزل حتى نصلي؟ قال: "تجلسون تنتظرون خروج نفسي". فنزلوا. ثم صعدوا يجلسون. فسألوه أصليت أصلحك الله؟ قال نعم. فاستسقى، وأرادوا مزج الماء بماء ساخن قال. برب السفرجل. قال يونس: ما رأينا أحدا لقي من السقم مثل ما لقي الشافعي. دخلت عليه فقال: "يا أبا موسى اقرأ علي ما بعد العشرين والمائة من آل عمران، وأخف القراءة ولا تثقل". وقرأت عليه. فلما أردت القيام قال رحمه الله: "لا تغفل عني فإني مكروب".

قالت أم المؤمنين عائشة: "لا أزال أغبط المؤمن بشدة الموت بعد شدته على رسول الله صلى الله عليه وسلم".

ولقد دعا عليه الصلاة والسلام بقدح من ماء عندما نزل به الموت فجعل يمسح به وجهه ويقول "اللهم أعني على كرب الموت".

وحضر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقت أن طعن عمر، وأثنوا عليه. فقال الفارق: المغرور من غررتموه. لو أن ما على وجه الأرض من ذهب لافتديت به من أهوال المطلع.

وما أحوج ابن آدم لرضى ربه يوم يلقاه. فلهذا كان دعاء النبي عليه الصلاة والسلام للشهداء: اللهم القه وأنت عنه راض.

قال يونس: عني في قراءتي ما بعد العشرين والمائة ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ونحوه.

بلى.. لقد أحس الإمام أنه ملاق ربه، فأراد أن يهيئ تلاميذه للأمر بعده، وأن يجهز للقاء نفسه، وأن يعيش ساعاته الأخيرة بين بطولات أحد وشهدائها، فيودع الحياة الدنيا كما حييها بالقرآن والسنة، ويسبح بالخيال إلى ما بعد أحد، إذ أظهر الله دينه على الدين كله، وأعد للصابرين ثواب الآخرة، التي يقف الشافعي ببابها.. فثم قول الله جل ثناؤه.

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَتَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣) وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥)﴾.

***

صعدت روح الإمام إلى بارئها.. عند العشاء الأخيرة من ليلة الجمعة.

قالوا: حملت جنازته إلى السيدة نفيسة فصلت عليه صلاة الجنازة وقالت "رحم الله الشافعي. إنه كان يحسن الوضوء".

ودفن جثمانه يوم الجمعة بعد العصر يوم ٢٩ رجب سنة ٢٠٤ في المقطم بمقبرة القرشيين بين قبور بني عبد الحكم. وإلى جوار القبر قبران آخران لعبد الله بن عبد الحكم وولده عبد الرحمن. ولما انصرفوا من دفنه لاح لهم هلال شعبان.

قالوا: لما مات ذهبه أهله إلى الوالي فأنبؤوه أن الإمام أوصى بأن يغسله الأمير. فقال الأمير لهم: هل ترك الإمام دينا؟ قالوا بلى. فأمر بسداده بأكمله، وقال لهم: هذا معنى تغسيلي له.

***

وبلغ ابن حنبل في بغداد نبأ موت الأستاذ في الفسطاط. فتوجع واسترجع وقال مقالة إمام في إمام.. تحتوي عباراتها القليلة على أعظم المعاني شمولا وسعة في البيان العربي.

قال: رحمه الله. كان كالشمس للدنيا وكالعافية للناس. فانظر هل لهذين من خلف أولهما عوض!

أجل: إنها الشمس. جعل الله فيها أسباب الحياة جميعا. والكواكب لها تبع. وإنها العافية للناس. وليس في الوجود البشري نظير للعافية.

وانقضت أيام. فوقف على الحلقة أعرابي فسأل: أين قمر هذه الحلقة وشمسها؟ قالوا: توفي رحمه الله. ففاضت عيناه بالدمع وسالت العبرات قطرات. وقال: رحمه الله وغفر له. كان يفتح ببيانه منغلق الحجة، ويوسع بالرأي أبوابا منسدة.

وبكاء العربي – كنحو كلامه البليغ – وداع من العرب الذين ألفوا أن يسمعوا، والذين يدركون بعروبتهم عروبته وبلاغته وعظمته، والذين يمثلون جمهور الأمة التي دانت بآرائه. وهو – إلى هذا جميعه – رثاء للظاهرة الإنسانية التي ومضت سنوات ومضت إلى غير عودة. وإن ملأت آثارها الوجود كله.

***

كان الشافعي إماما. خرج في سبيل العلم، ومات شهيدا في سبيله. وضعه الرسول في مكانه، بين الأنبياء والعلماء، حيث قال "يشفع يوم القيامة الأنبياء، ثم الشهداء، ثم العلماء".

obeikandl.com

الفصل الثاني

إمام مصر

ملك الشافعي على أهل مصر قلوبهم مذ وفد إليها كبشائر الفجر الطالع. وكانت الحضارة الإسلامية تتجه شطرها لتتخذها منطلقا. وكان في الخمسين، تسبقه شهرته التي لا تنازع. فهو قد بدأ مقامه في مصر، وهو فرد الدهر، تربطه بالمصريين روابط شتى من الإكرام والتجلة. وهم شعب متدين من قديم الزمان، مجمع على السنة. لم يعرف زندقة أو هرطقة أو تفرقا، كما تفرق القوم في بغداد، أو غيرها، بعضهم لبعض عدو، بل اعتنق المصريون الإسلام بتعبد عميق عريق، حببه إليهم يسره، وأنه دين الفطرة، ولم يكن العرب غزي جبارين، بل كانوا رسل هدى ومعلمين: يخالطون الشعب وينشرون فيه فضائل الإسلام.

أحبت مصر محمد بن إدريس الشافعي حبها لدينها، ولعروبتها، ولابن عم الرسول، وعالم قريش المنتظر. وتلك درجة في القلوب يتفرد بها من بين سائر الأئمة والعلماء.

وأحبته لأنه جاءها بما تهوى الأنفس: كلام الله وسنة رسوله.

وأحبته إذ يتلو كتاب الله كما لم يروا أحدا يتلوه.

وأحبته للقدوة والأسوة من حياته عبادة وعملا.

وأحبته إذ بايعه أئمة البلاغة على أنه الإمام..

وأحبته لأنه كتب فيها كتبه الباقية على الدهر، فخصها بالمجد الذي يعلو بها كلما استطال الزمن، والذي بوأه مكانه فوق القمم، ومن نحو ألف ومائتي عام، ليبقى فوقها أبدا.

لكأنما كانت كل كلمة يقولها ابن هشام صاحب السيرة النبوية بجامع عمرو أو فيما عداه، تزكية للإمام القرشي الذي يمت إلى صاحب السيرة بأوثق آصرة من دينه وفقهه وفصاحته وقرباه..

فلما ضم جثمانه ثرى الفسطاط، رفعته إلى أعلى هضاب مصر، في حراسة قبرين لعظيمين من علمائها.

وكان من منطق التاريخ أن يكون أقدم مخطوط تفاخر بعرضه دار الكتب المصرية اليوم في قاعة المخطوطات، نسخة من القرآن الكريم يرجع تاريخها إلى النصف الثاني من القرن الأول. يقال إنها من نسخ المصحف الذي جمعه عثمان ووزع نسخه في الأمصار.. وأن يكون المخطوط الذي يليه في القدم، وفي الفخار، وتعرضه دار الكتب، هو "رسالة الشافعي" بخط الربيع بن سليمان بأجزائها الثلاثة وفي ختامها (أجاز الربيع بين سليمان صاحب الشافعي نسخ كتاب الرسالة، وهي ثلاثة أجزاء، في ذي القعدة سنة خمس وستين ومائتين – وكتب الربيع بخطه). وأن يكون ما بين أيدي المسلمين اليوم من رسالة الشافعي هو صيغة هذه النسخة.

***

أخذ تلاميذ الشافعي يلون القضاء والإفتاء في بغداد ذاتها في عهد المتوكل (٢٣٢ – ٢٤٨). وفي منتصف القرن الرابع ولي القضاة في بغداد شافعي، هو عتبة بن عبيد بن موسى. وانتشر المذهب في مصر والشام، وسمقت السوق التي نمت في الفسطان وبغداد ومكة، وبسقت الفروع في كل مكان. فلم يكد ينتصف القرن الثالث، حتى كان أحمد بن طولون (٢٥٤ – ٢٧٠) يشجع فقهاء الشافعية. وتغلغل المذهب بأدنى الأرض وأقصى الصعيد لنجد في أسوان أبا حنيفة الأسواني – القبطي الأصل – وأطول تلاميذ الشافعي حياة بعده (٢٧١).

وفي حياة الربيع أي القرن الثالث، حمل أحمد بن سيار كتب الشافعي إلى مرو، وأعجب بها الناس – فنظر فيها عبد الله بن محمد بن عيسى المروزي، وأراد أن ينسخها فلم يمكنه ابن سيار. فباع ضيعة له وخرج إلى مصر فأدرك الربيع وغيره، فنسخ كتب الشافعي ورجع إلى مرو. ونشر القفال الكبير والقفال الصغير المذهب بخراسان وسجستان وما وراء النهر. ونشره المروزي والاسفراييني في مرو. وذاع المذهب في هراة وسرخس ونيسابور وطوس وغيرها.

ومكن السلطان محمود بن سبكتكين، والوزير "نظام الملك"، للمذهب الشافعي في المشرق. ونافس الشافعية الحنفية في القضاء ببغداد، ثم عزل القاضي الشافعي، لكن فقه الشافعي طفق يزاحم الحنفي بمنكب ضخم. ولم يكن بفارس إلا المذهبان الشافعي فالظاهري ثم ساء الظاهري ثم انقرض، فغلب المذهب الشيعي في فارس حتى اليوم. أما أهل السنة فيها فشافعية.

انتشر المذهب الشافعي بالحجاز، وفي بلاد الهند والقوقاز وبلاد الأكراد وأرمينية، وشمال أفريقية وشرقها حتى تنزانيا. ووصل الأندلس ابتداء من القرن الرابع، وانتشر في جزر الهند وسيلان وجاوة والفلبين وسيام والهند الصينية حتى إندونيسيا. كما انتشر في اليمن في أوائل القرن الرابع وفي عدن وحضرموت.

وسيطر الشافعية في عالم الفقه والقضاء بمصر مذ ولي القضاء "أبو زرعة محمد بن عثمان الدمشقي" سنة ٢٨٤ في عهد هرون بن خمارويه بن أحمد بن طولون، وكان أبو زرعة يهب مائة دينار من يحفظ مختصر المزني في فقه الشافعي.

وفي منتصف القرن التالي، أمرت الدول الفاطمية بالعمل بمذهب الشيعة في مصر فلم يتعد المذهب الدولة إلى الشعب، ومع ذلك اضطر الخليفة المنتصر في سنة ٥٢٥ إلى تعيين

قاض شافعي، وقاض مالكي، وقاض للشيعة الإمامية، وقاض للشيعة الإسماعيلية. وفي سنة ٥٤٧ تولى قضاء القضاة شافعي هو (أبو المعالي مجلي). كما كان يحدث أن يولي الفاطميون وزراء سنيين. فلما أبطل صلاح الدين العمل بالمذهب الشيعي سنة ٥٦٧ عين عبد الملك بن درباس المراني الشافعي قاضيا للقضاة. وبدأ تغيير القضاة ليصير القضاة بمصر والشام شافعية – وتبعته الدولة الأيوبية فدولتا المماليك.

وفي سنة ٦٦٦ عين قضاة على المذاهب الأربعة. مع اختصاص القاضي الشافعي بالنظر في أموال اليتامى وتولية النواب في الوجهين القبلي والبحر، والنظر في شئون الأوقاف. حتى إذا دخل العثمانيون مصر، قرروا أن يكون القضاء حنفيا، فأجاءوا قاضيا من تركيا يحكم على المذاهب الأربعة. له نواب أربعة يجلسون بالمدرسة الصالحية وكان المعمول به قضاء النواب الأربعة.

وإذ بقي المماليك على حكم البلاد، فقد كانوا يعينون شيخا للأزهر من الشافعية. ولهذا كان أغلب شيوخ الأزهر شافعية، وكان المالكية أقل. ولم يصر بعض شيوخه من الحنفية إلا منذ قرن، ولم يقتصر القضاء على المذهب الحنفي رسميا في مصر إلا بفرمان أصدره محمد علي من أكثر من قرن مضى.

لكن المذهب الشافعي استبقى مكانته في الشعب. فأغلب أهل المدن اليوم بما فيها القاهرة شافعية. وأغلب أهل الوجه البحري، اليوم، شافعية. وأغلب أهل الصعيد مالكية.

***

في القرن الثالث استوسق للدولة الفاطمية أمر المغرب العربي وأفريقية وجزيرة صقلية.. وفي القرن الرابع قدم مصر "جوهر" يقود جيوش المعز لدين الله (٣٥٨ – ٣٦٥)، فنزل شمال شرقي القطائع والعسكر ووضع أساس القاهرة سنة ٣٥٨. وأساس الأزهر سنة ٣٥٩. وتمت عمارته في رمضان سنة ٣٦١ (٩٧٢م) فسمى "جامع القاهرة". ثم انفرد باسم (الأزهر). أما اسم المدينة القديمة الفسطاط فأصبح (مصر). واسم المدينة الجديدة (القاهرة) ثم صارتا بلدة واحدة، تدعى (مصر القاهرة). ثم القاهرة. وكان بمصر عندما زارها ابن حوقل في القرن الرابع دور من سبع طبقات. يسكن الواحدة منها المئتان من الناس، وبها الحمامات الفسيحة والبيمارستانات، والأسواق المسقوفة التي نقلتها عنها عواصم العالم.

فتح الأزهر أبوابه للصلاة. فلم تمض أعوام أربعة، حتى كان مدرسة جامعة! درس فيه علي بن النعمان مختصر أبيه في فقه الشيعة لجمع حافل من العلماء والكبراء.. وأثبت أسماء الحاضرين. فكانت أول حلقة للدراسة في الجامع الأزهر، وأول درس يقيد فيه الأسماء. وبعد سنوات استأذن العزيز بالله وزيره يعقوب بن كلس – وكان مسحيا أسلم – في أن يعين للتدريس به سبعة وثلاثين فقيها لهم رئيس، ودار للسكنى، تجري عليهم أرزاق حسنة وأوقاف. وتخلع عليهم الخلع في عيد الفطر، إلى جوار أعطيات للأساتذة والطلاب. وبغلات يحملون عليهم تشريفا لهم. ومن أشهر الأوقاف على دور العلم وقفية الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٠ – بل أصبح للأزهر "شخصية قانونية مستقلة" فقرر السلطان برقوق سنة ٧٩٢ أن يرث مجاوريه وأرباب وظائفه إذا لم يكن لهم وارث.

وظهر للأزهر منافس عتيد حينما أنشأ الحاكم بأمر الله (٣٨٦ – ٤١١) "دار الحكمة".

وتقاسم الجامعتان التدريس: للأزهر العلوم الدينية والقراءات، ومجلس قاضي القضاة ومركز المحتسب العام، ولدار الحكمة اللغة والطب والرياضة والمنطق والفلسفة.

اختص الأزهر أول أمره بتدريس فقه الشيعة. فظلت للشافعية والمالكية حلقاتهم بالجامع العتيق جامع عمرو – ثم صار الأزهر لكل المذاهب. وقصده الغرباء وألقى فيه الدروس مشيخة العلم وناظورته، طوال القرون الماضية كمثل عبد اللطيف البغدادي وابن خلدون.

ولما عفت معاهد بغداد وقرطبة، أقبل المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها على الأزهر، فكان ملاذ الشعب والدولة – حتى إذا كان الاحتلال العثماني (٩٢١ هـ – ١٥١٧م) بقي الأزهر يحمل المشعل، فحفظ للأمة تراثها من القرآن والسنة واللغة والعلوم.

وفي نهاية القرن الثامن عشر الميلادي نهض الأزهر، بأعظم كفاح لطرد الغزاة الفرنسيين، وها هو ذا اليوم يحمل تبعاته في نهضة الأمة الإسلامية، كجامعة كبرى لعلوم الدين والدنيا، من كليات أصول الدين والشريعة والقانون واللغة. إلى كليات الطب والهندسة والعلوم والزراعة وغيرها.

***

كانت يد صلاح الدين (٥٦٥ – ٥٨٩ – ١١٦٩ – ١١٩٣) بيضاء على العلم كمثل ما كانت صعقاته ساحقة للعدو. حمل المهند في يد، وفضائل الإسلام في يد: يبلغ المستجير مأمنه، والصلح عنده خير، وهو منتصر أعظم النصر. يعالج العدو المريض ورحى الحرب تدور. ويعلم ويعمل بما يرويه الشافعي من قول مروان بن الحكم لعلي بن الحسين (ما رأيت أحدا أكرم غلبة

من أبيك (يقصد علي بن أبي طالب جده لأبيه) ما هو إلا أن ولينا يوم الجمل فنادى مناديه: لا يقتل مدبر ولا يذفف على جريح).

ولما مات صلاح الدين لم يكن في خزائنه إلا سبعة وأربعون درهما!!.

وكان غزاء وبناء كالرشيد. وكان كمثله مجالس علم. يرحل الرشيد بولديه إلى مالك في المدينة ليسمعا الموطأ. ويبعث الأمراء لسماع "كتاب السير" على محمد. ويرحل صلاح الدين بولديه: العزيز عثمان، والأفضل علي، ليسمعا الحديث على الإمام السلفي. وفي بلاد الرشيد عمالقة الأدب العربي، وقاضي القضاة. وفي مغازي صلاح الدين ورحلته بولديه (فهذه رحلة ثانية. يقوم فيها مقام الرشيد. ويقوم عليه وعثمان. مقام المأمون والأمين). أدرك صلاح الدين منذ دخوله القاهرة أن طرد الصليبيين من فلسطين لا يتم إلا بوحدة المسلمين فكريا وعسكريا، فبدأ بالتمكين للسنة والقضاء على مذهب الشيعة لتدين الأمة العربية بمذهب واحد. فلما أصلح الله باله، نهد للقاء الصليبيين، فكتب على نفسه الجهاد أربعة وعشرين عاما. منها ثمانية في مقر القيادة بالقاهرة، وستة عشر في ميادين المعارك.

وأدرك ما يدركه بناة التاريخ العظام. أن الأفكار لا تقاومها إلا الأفكار. وهو مبدأ تعلمه على "نظام الملك" الذي أنشأ مدرسته ببغداد لمقاومة فقه الدولة البويهية الشيعي، وتعلمه على أستاذه ومليكه نور الدين محمود. إذ قاوم المذهب الشيعي في سوريا، بنشر المذهب الحنفي وإنشاء أول مدرسة لتدريس الحديث بها. فلما طبق المبدأ بمصر، حيث الغلبة للمذهب الشافعي، انطلق صلاح الدين يبني المدارس له بل للمذاهب الأخرى للسنة؛ حتى انماع المذهب الشيعي. كما ينماع الملح في الماء وأصبح المذهب الشافعي مذهب الأيوبيين.

والذي صنعه صلاح الدين، صنعه من قبله ومن بعده كل الذين استقلوا بمصر، أو عزموا الاستقلال بها.. كان السري بن الحكم، أولهم، يمشي وراء الشافعي إعظاما له، وابن طولون أول الذين استقلوا بالفعل، وكان خلفاؤه يعضدون الشافعية، فلما بنى القطائع وشيد المسجد الجامع القائم إلى اليوم، كان "الربيع" راوية الشافعي أول من ألقى الدروس به، ولما مات صلى عليه خماريه بن أحمد بن طولون وقد تولى بعده. وفي عهد هارون بن خمارويه مكن "أبو زرعة" للمذهب الشافعي.

وسنرى بعد ألف عام، علي بك الكبير يستقل بمصر سنوات أربعا (١٧٦٨ – ١٧٧٢م) فيحقق الوحدة بين مصر والشام والحجاز، كمثل صلاح الدين، وكمثله أيضا يتقرب إلى الله والناس بتجديد قبة الشافعي ومسجده وقبره. بل سنرى أسد الدين شريكو – عم صلاحج الدين – إذ يفتح الله عليه مصر يزور ضريح الشافعي. وعند الضريح يقتل جنود صلاح الدين (شاور) الوزير الذي استعان على بلاده بالصليبيين، في حين كان شيركوه يزور الضريح..

***

كانت نصرة السنة صيحة الحرب من صلاح الدين على الشيعة، فابتغى الوسيلة هو ودولة بني أيوب كلها، إلى الله والمسلمين، بناصر السنة: محمد بن إدريس الشافعي.

كان أول بنيان ضخم أقامه في حكمه هو المدرسة "الناصرية" لتدريس فقه الشافعي وهي منسوبة إليه: "الملك الناصر" صلاح الدين: وهي كذلك أول مدرسة أقيمت بفسطاط مصر. وقف عليها الصاغة والقرية. وقامت المدرسة قبالة جامع عمرو حيث أذاع الشافعي مذهبه. وهي كذلك أول مدرسة أقيمت في مصر، بالفسطاط أو بالقاهرة مستقلة عن المسجد.

وكانت المدرسة الثانية منسوبة إلى صلاح الدين أيضا وهي المدرسة (الصلاحية) لتدريس فقه الشافعي. ولما ضرب الدينار الذي يحمل اسمه للدنيا سنة ٥٧٦. جمع في سكته وعملة دولته، ما تقاسمه الاسمان اللذان تحملهما المدرستان. فنقش على وجهه (الناصر لدين الله) وعلى ظهره (صلاح الدين).

فالشافعي وصلاح الدين في مصر قرينان. بايعت أولهما الأمة الإسلامية على أنه (ناصر السنة). وبايعت ثانيهما على أنه "الناصر صلاح الدين". وكان طبيعيا أن يتشفع الأخير منهما بالأول.

كان مجرد وزير للخليفة الفاطمي العاضد، لم يمض عليه عامان مذ دخل مصر" ومن ذلك بنى المدرسة الناصرية، للشافعي، بجوار جامع عمرو سنة ٥٦٦ (١١٧٠م). كذلك صنع عدما دخل بيت المقدس بعد انتصار "حطين" فأنشأ مدرسة للشافعي، تم بناؤها سنة ٥٨٨ (١١٩٢م) أي في العام السابق على وفاته. فكان من أواخر أعماله الكبرى بناء مدرسة الشافعي إلى جوار المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله، مثلما كان من أوائل أعماله الكبرى بناء مدرسة للشافعي إلى جوار الجامع العتيق الذي باركه الله بالشافعي ذاته.

***

اشتهرت المدرسة الناصرية باسم مدرسة "ابن زين النجار" أحد علماء الشافعية الذي بدأ التدريس فيها. ثم عرفت فيما بعد بالمدرسة "الشريفية" نسبة للشريف قاضي العسكر الذي ألقى الدروس هنالك. زارها ابن جبير سنة ١١٨٣ (٥٧٩هـ) فوصفها بأنها لم يعمر مثلها من حيث المساحة والبناء حتى يخيل لمن يطوف بها أنها بلد مستقل، وبإزائها الحمام والمساكن للطلاب. ولقي شيخها نجم الدين الخبوشاني فقال إنه لم يجد بمصر كلها نظيرا له.. والخبوشاني هو الذي

ألقى خطبة الجمعة الأولى من المحرم سنة ٥٦٧ (١٠ من سبتمبر سنة ١٩٧١) باسم الخليفة العباس وكتب بعدها صلاح الدين إلى الخليفة يقول: إن (الدين أصبح واحدا بعد أن كان أديانا).

وبدأ عصر جديد للعلم الإسلامي.

ففي سنة ٥٧٢ (١١٧٦م) بنيت تربة الإمام الشافعي. وفي سنة ٥٧٤ (١١٧٨م) صنع التابوت. كما يظهر من كتابة صانعه عليه. وهي أول عمارة على قبره. سيجددها الملك الكامل سنة ٦٣٥ وينفق عليها خمسين ألف دينار مصرية.

وفي سنة ٥٧٢ ذاتها شرع صلاح الدين في بناء "المدرسة الصلاحية" لتدريس فقه الشافعي وانتهى بناؤها في سنة ٥٧٥ (١١٧٩م) فعرفت "بتاج المدارس". وأوقف عليها صلاح الدين ريع جزيرة الفيل للنفقة على التدريس. وفي مكانها الآن، مسجد الشافعي. تعاقب على التدريس بها أعاظم العلماء. ورعاها ملوك الدولة، الأيوبية، ودولتا المماليك، وجددها قايتباي، كما عمرها الأمير عبد الرحمن كتخدا الذي أحدث بالأزهر أكبر عمارة في تاريخه، فصار ضعفى ما كان.

وفي جوار جامع عمرو كذلك. أنشأ صلاح الدين المدرسة القمحية لتدريس الفقه المالكي، وعرفت بهذا الاسم للقمح الذي يجيئها من الأوقاف المحبوسة عليها مباشرة، ليوزع على الطلاب والأساتذة.

وانتقلت يد البناء العظيم من الفسطاط إلى القاهرة، فأنشأ المدرسة السيوفية لتدريس الفقه الحنفي؛ وعرفت بهذا الاسم، لأنها كانت تطل على سوق السيوفيين، ثم إلى الإسكندرية، فأنشأ المدرسة السلفية، باسم أبي طاهر أحمد السلفي. وأوقف الملك العزيز عثمان – ابن صلاح الدين

– على الزاوي التي كان يدرس فيها الشافعي بجامع عمرو، وعرفت به، ريع أرض بناحية سندبيس من أعمال القليوبية، وهي من القرى التي نزل بها العرب في الحوف الشرقي.

ودفن العزيز عثمان وأمه شمس، زوجة صلاح الدين، إلى جوار قبر الشافعي تقربا وتشفعا. وما تزال قبة الشافعي من أظهر معالم القاهرة. وندما دفن الملك العادل، نائب صلاح الدين وأخوه.

وبنى صلاح الدين القلعة على مبعدة ميل من قبر الشافعي، ونقش عليها فتوحه وألقابه. فاجتمعت القبة والقلعة، اجتماع العلم والقوة، في أعلى مشارف القاهرة. ليعلم الشافعي وصلاح الدين المسلمين الدرس الأول في الذود عن الإسلام: أن يعدوا لخصومهم ما استطاعوا من قوة.. وأن يتعلموا.

هكذا يقترن اسم الشافعي في مصر بتدريس فقه السنة خصوصا. وتدريس العلم عموما. وبالمدرسة المتخصصة للتعليم لأول مرة في الإسلام بمصر. ويقترن اسم صلاح الدين بالعلم قدر ما يقترن بالشافعي – ويقترن الاسمان بإنشاء النظام التعليمي الجديد وبالدفاع عن السنة وعن الإسلام كله، كما يقترن اسماهما باسم مصر.

وتبارى الوزراء وزوجات الوزراء، والأعيان والتجار، في نزعة التشييد. وهي مبارات لا مشابه لها إلا في بلد مسلم: بنى الوزير عبد الرحمن البيساني – القاضي الفاضل، وكان شافعيا

من عسقلان – المدرسة الفاضلية فحوت مكتبتها مائة ألف كتاب في كل العلوم [٩١]، وكان فيها قاعة للإقراء. أقرأ فيها الإمام أبو محمد الشاطبي. وأنشأ الوزير أزكش المدرسة الأزكشية لتدريس الفقه الحنفي وأنشأت زوجة أزكش السيدة عاشوراء المدرسة العشرية. وأنشأ التاجر ابن الأوسوفي مدرسة ابن الأرسوفي.

وفي عهد العزيز بن صلاح الدين (٥٨٩ – ٥٩٥) أنشئت المدرسة الأشقشقة. وفي عهد المنصور بن العزيز، أنشئت المدرسة الغزنوية. وفي عهد العادل (٥٩٦ – ٦١٥) أنشئت المدرسة العادلية والمدرسة الشريفية. وأنشأ أخوه تقي الدين المدرسة التقوية للمذهب الشافعي وهي المسماة بمنازل العز. ومدرستين بالفيوم عندما صارت إقطاعا له.

(٩١) قيل إن صلاح الدين وجد بالقاهرة عندما دخلها نحو مليون كتاب – في مكتبات الفاطميين آل منها ١٢٠ ألفا للقاضي الفاضل.

obeikandl.com

وفي عهد الكامل بن العادل (٦١٥ – ٦٣٥) أنشئت المدرسة الكاملية لتدريس علوم "الحديث". وأنشئت المدرسة الفخرية. وفي عهد العادل بن الكامل أنشئت المدرسة الصيمرية والمدرسة الفيضية. وفي عهد الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل (٦٣٧ – ٦٤٧) أنئشت المدرسة الصالحية لتدريس فقه المذاهب الأربعة، ومدرسة لتدريس فقه الحنابلة.

***

بنيت هذه المعاهد الضخمة للعلم في أعوام ثمانين هي عمر الدولة الأيوبية، واستطردت بعدها دولتا المماليك (٦٤٨ – ٩٢١) في رسالة الحضارة، فأوفتا على الغاية من الناحيتين التعليمية والمعمارية. فلم تكن المساجد أو المدارس مجرد معاهد أو جامعات، بل أمست عماراتها عدلا لأهرام مصر التي تقهر الدهر.

كانت كل مدرسة تنشأ أو مسجد يقام، مفخرة لملك. يحشد لها جاهه وماله والدارسين والمدرسين. فالمدرسة والمسجد آيتان للخلود في مصر الإسلامية، مع هذا الفارق الضخم الذي تضاءلت بإزائه الأهرام وقمؤت.. إن عمارات الإسلام بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه. ويدرس فيها العلم الذي هو فريضة على كل مسلم ومسلمة.

ولم يتوقف إنشاء المعاهد الكبيرة إلا يوم لقي السلطان الغوري حتفه تحت سنابك الخيل في "مرج دابق" دفاعا عن مصر والشام، حينما كرث الاحتلال التركي بلدان العالم العربي – [٩٢]

---

(٩٢) وفي عهد الناصر حسن (٧٦٢) أنشئت مدارس الخيروية والقيصرانية والشاغرة والفارسية والصغرتمشية والحجازية والبشيرية والسابقية.

ومع أن السلطان حسن لم يك ذا شأن في التاريخ السياسي إلا أن المدرسة التي تحمل اسمه من سنة ٧٥٧ حتى اليوم، هي الدره الفنية للعمارة في المدارس الإسلامية جمعاء قال عنها القلقشندي (يقال إن أبوابها تزيد في القدر على أبواب كسرى بأذرع).

وهي أعظم بناء إسلامي قائم الآن. مساحتها نحو عشرة آلاف متر مربع. وتحيط بالصحن مدارس أربعة للمذاهب الأربعة، كل مدرسة لها إيوان وصحن. وهي من عدة طبقات تشرف على الصحن وعلى واجهة المدرسة الكبيرة. لكل مدرسة شيخ وملاحظون للحضور والغياب في الليل والنهار، وأمين للمكتبة، وبكل مدرسة مائة طالب (داخلية) من كل فرقة ٢٥ متقدمون، ٣ معيدون، ٣٠ طالبا للقيام بوظيفة النقيب.. ألحق بها مكتبان لتعليم الأيتام القرآن والخط. إذا أتم اليتيم حفظ القرآن منح ٥٠ درهما ومثلها مكافأة لمعلمه ولها طبيبان دائمان، واحد للأمراض الباطنية وثان للعيون، وطبيب ثالث للجراحة عند الحاجة.

قال الرحالة المغربي الوتيلاني في القرن الثالث عشر الهجري (إنه مسجد لا ثاني له في مصر ولا في غيرها من البلاد. كأنه جبال منحوتة تصفق الرياح في أيام الشتاء بأبوابه كما تفعل في شواهق الجبال. وفي أحد أبوابه سارية رخامية لطيفة يقال إنها من إيوان كسرى وفيها نقوش عجيبة).

ويقول المقريزي عنها (لا يعرف في الإسلام معبد من معابد المسلمين يحاكي هذا الجامع وقبته لم يبن بديار مصر والشام والعراق والمغرب واليمن مثلها). وتوالى إنشاء المدارس: البرقوقية. والأتميشية والاستدارية. والمحمودية.

السودان. ومدرسة فرج. ومدرسة عبد الغني. ومدرسة بارسباي. ومدرسة فيروز ومدرسة أبي بكر بن مظفر (٨٥٨) ومدرسة الروضة ومدرسة فاتك بك أمير أخور. ومدرسة السلطان الغوري التي تلقت النظر اليوم على ناصية الطريقين المؤدبين إلى الأزهر وإلى الباب القبلي للقاهرة القديمة.

حتى إذا نهضت مصر في فاتحة القرن التاسع عشر، انطلقت تنشئ المدارس.. ولا جرم إن علوم الشريعة التي تدرس في هذه المدارس سماء لا تطاولها سماء. والفقه الغربي يحاول ليبلغ شأوها، وما هو ببالغه.

وتخلف عن هذه النهضة العلمية، أثر فني من أهم الآثار التي تضافرت لأحداثها القرون الأربعة التالية لصلاح الدين، يتجلى في أعظم الآثار المعمارية الباقية بمصر الإسلامية، بل في العالم الإسلامي جميعه.. وهو الطراز المعماري المسمى بطراز "المسجد المدرسة" أو "المدرسة المسجد". ذلك أن المسجد، اتخذ شكل المدرسة. فلم يقتصر تصميمه على إقامة فناء واسع للصلاة الجامعة، يتحلق فيه الطلاب حول الأساطين، بل أصبح طراز كلية أو جامعة. تؤدى فيه الصلاة الجامعة، لكن فيه أروقة للطلاب أو قاعات مخصصة لكل مذهب، وأماكن معدة للإقامة الدائمة أحيانا، بما يصحب ذلك من معدات كالمكتبات والحمامات ومساكن المشرفين والأطباء وما إلى ذلك.. ولم يك بالقاهرة عندما زارها ابن جبير في عهد صلاح الدين جوامع كبرى إلا جوامع: عمرو والأزهر وابن طولون والحاكم.. فكل ما جد بالقاهرة التي يطلق عليها "مدينة المساجد" إنما هو من روائع العمارة الإسلامية التي بنيت على هذا الطراز، طراز الجامع الذي هو جامعة يفد إليها المسلمون من كل الأقطار لتلقي العلم، كما يفد الأجانب إلى القاهرة والإسكندرية ودمياط وتتنيس للتجارة مع كل أطراف العالم [٩٣].

---

(٩٣) حسبنا أن نذكر أمثالا مما رواه الفرنجة عن القرون الخمسة التي جيشت مصر فيها جيوش صلاح الدين وخلفائه، وأقامت هذه المعاهد والمساجد، ومنها يستبين دورها التاريخي في موقعها الجغرافي بين طرفي العالم. وأن القوى العسكرية والعلمية والفنية والمعمارية نهضت بها قوى اقتصادية من مستواها.

***

كانت الدولة الفاطمية تلفظ أنفاسها الأخيرة. فحرقت الفسطاط حتى لا تتحصن فيها جيوش الصليبيين. واشتعلت النار بالفسطاط أربعة وخمسين يوما في العام السابق على مقدم

كان خان مسرور فندقا بين فنادق كثيرة بالقاهرة، به وحدة مائة حجرة، يقصده تجار سوريا. وكان بالقاهرة وكالات تجارية كثيرة، منها وكالة قوصون يخزن بها السوريون بضائعهم، رأى فيها المقريزي سنة ٨٠٠هـ أربعة آلاف إنسان يعيشون فيها.

ومن قبل ذلك وفي عصر حروب صلاح الدين كان بالإسكندرية في شتاء سنة ١١٨٧ – ١١٨٨ سبع وثلاثون سفينة تجارية قادمة من الجمهوريات الإيطالية وغيرها من الدول الأوربية تحمل تجارات أوربا والشرق.

وأذن الملك العادل لأهل البندقية أن ينشئوا فندقا لتجارتهم في الإسكندرية. وصار لهم فيها قنصل استطاع خلفاؤها فيما بعد أن يضمنوا مائة ألف جنيه استرليني فدية فرضتها مصر لإطلاق سراح ملك قبرص عندما أسرته. وذات يوم دفعت سفينة واحدة ٢١٠٠٠ جنيه استرليني مكوسا على حمولتها بالإسكندرية.

ومن قبل ذلك في عهد المستنصر الفاطمي (٤٢٧ – ٤٨٧) (القرن الحادي عشر الميلادي) قرر ناصر خسرو أن الخراج اليومي بمدينة تنيس – وحدها – ألف دينار. وأن بساحلها دائما ألف سفينة بعضها للتجار وبعضها للسلطان. كما قرر أنه رأى بالقاهرة عمارات تبلغ أربعة عشر طابقا، وأن بالقاهرة ٢٠.٠٠٠ دكان يملكها الخليفة – أي الدولة – أجرة الواحد بين دينارين وعشرة دنانير مغربية – دعك من سائر الناس والبلاد وشتى مصادر الإيراد، من زراعة ذائعة الصيت وتجارة عالمية وصناعة هي مفخرة العصور الوسطى في بلدان العالم.

ولم يتضاءل المورد الخارجي إلا بعد تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٨ ولم تضمحل ثروة البلاد إلا بعد احتلال الأتراك مصر سنة ١٥١٧.

صلاح الدين ليذود عنها الصليبيين. أما الجامع العتيق فلم تمسسه النار، فبذل صلاح الدين قصاراه لتعمير الفسطاط، بالمدارس ينشئها، والجامع العتيق يعمره، باعتباره معقل السنة، وبالأرزاق الدارة على أهل العلم، حتى لتبلغ مائتي ألف دينار في العام – روى ابن جبير أنه كان ينفق ألفي دينار في الشهر لصيانة المساجد عموما، وخص جامع عمرو بثلاثين دينارا في اليوم لصيانته ونفقة القراء فيه.

لكن البلدة التي نزل ابن جبير بفندق فيها بشارع القناديل، قريبا من جامع عمرو، بعد إذ التهمتها النار بخمس سنين، لم تقدر على البقاء بمعزل عن القاهرة – ولم يكن بينهما أكثر من ميل – فوسعت القاهرة الفسطاط والعسكر والقطائع. وشرع صلاح الدين يسورها جميعا بسوره العظيم سنة ٥٦٩ وبنى لحمايتها القلعة عند قبة الهواء.

وفي خارج مصر حديث بناء المدارس في القرن الخامس. بني أهل نيسابور المدرسة البيهقية. وبنى نصر بن سبكتكين مدرسة. وبني أخوه السلطان محمود مدارس ثلاثة.

وأشهر ما بني في بغداد المدرسة النظامية سنة ٤٥٩ – بعد الأزهر بمائة عام، تماما – أنشأها الوزير نظام الملك (٤٠٨ – ٤٨٥)، وقرر بها معاليم للفقهاء، وكان يسمع الحديث ويسمعه ويقول: إني لأربط نفسي في قطار النقلة لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ألقى بها الدروس طائفة من أساطين العلم الإسلامي والمذهب الشافعي، كأبي إسحق الشيرازي والجويني والغزالي.

وفي القرن التالي أقيمت ببغداد مدرسة للشافعية على شاطئ دجلة.

وفي القرن السابع الهجري (١٢٣٤ ميلادية) قامت المدرسة المستنصرية في بغداد تدرس المذاهب الأربعة. لكل أستاذ ٧٥ تلميذا. وللتلميذ دينار من الذهب كل شهر. فوق جراية من خبز ولحم كل يوم. وورق وزيت للإضاءة وساعة حائط وصهاريج لتبريد المياد وحمام للطلاب وبيمارستان.

أما أقدم الجامعات الأوربية فقامت بعد ذلك في النصف الثاني من القرن الثالث عشر (السابع الهجري) أقامها الفونسو الحكيم في أسبانيا (١٢٥٢ – ١٢٩١) فدرس فيها (أبو بكر الرقوطي) العلوم للمسلمين والمسيحيين واليهود [٩٤].

***

سعدت مصر بالشافعي في حياته وبعد مماته، فأصبح لها شعارا للعلم، ورفع ذكرها بين الأمم، وكانت أعوامه الأخيرة فرصتها العظمى على الدهر، لتظفر بمثل إنساني يقصر اليراع دون تصويره من أي ناحية بصر به.

اجتمع له ما كان تفاريق عند الأئمة، فتمثلت فيه علوم السنة وعلوم الرأي معا، ينشرها كلها في أعز مكان بجوار البيت الحرام، وفي عواصم الإسلام. ليثبت بين الكثير مما يثبته، بالفعل وبالفكر: أن الإسلام دار واحدة، وأن مصدر واحد وأن لسان الإسلام واحد: عربي، وإن تعددت وجوه ناسه.

---

(٩٤)

obeikandl.com

كان نصف القرن الذي رفعه فوق هاماته. مفخرة التاريخ العلمي في الإسلام كله. تشرئب نحوها، لتبلغ شأوها، حقب التاريخ العلمي. فكان فيه مثلا أعلى بالقول والفعل والقدوة. أفنى حياته في سبيل الوحدة الفكرية للأمة. فارتبط في فكرها بأسباب وجودها – فهي تذكره كلما ذكرت مقدساتها الأربعة: القرآن والسنة، واللغة العربية، والوحدة.

ولقد يكون من أترابه من بلغ الذروة في كثير من مناحيه. لكن أحدا لم يبلغ فيها كلها، مبالغه كلها، وكأنما كانت حياته وثبات بين القمم.. يسرت له السماء كل الأسباب ليكون إماما لا قرين له.

***

ضرب البناة العبقريون على قبره القبة العالية – ورفعوا فوقها زورقا دقيق الصنع، يسح سبحاته في ضمير العصور، وكأنما يطير، أو يشق صفحة الماء، زرقاء صافية صفاء صفحة السماء، سابحا فوق الخضم، الذي تجري تحت الثرى أمواجه، وأثباجه: محمد بن إدريس الشافعي.

وسمقت القبة فوق هضاب القاهرة، كواسطة العقد، بين الهرم الأكبر أعظم عجائب الدنيا السبع، يحرسه الهرمان الآخران وأهرام كثيرة – وبين عجائب القاهرة وأولها جامع عمرو، تحرسه قلعة صلاح الدين، والجامع الأزهر، بين مساجد ومعاهد لا يكاد يدركها الحصر، تتعالى مآذنها وقممها حفية بالإمام الشافعي.. وترفعها الأمة التي تخرج قلبها من خلال القرن، حاملا روحها إلى الوجود، في شكل هرم أو مدرسة، أو قبة أو مئذنة، تمسكا بالعقيدة وقربى للمعرفة، وتعاليا بالدعاء للسماء لتحفظ عليها وجودها وعقيدتها.

وما كان عجيبا أن تجتمع في موقع واحد، كل هذه الأسماء والمعاهد، التي نتجتها القرون الخمسون من عمر الحضارة. فما هو إلا تدفق التاريخ واستمراره، ونتائج الأرض التي تصنع العظائم واستقراره، والحنيفية السمحة التي فجرتها السماء ينبوعا، غمر هذا المكان، الذي تلتقي عنده الطرق وتفترق، وتجتمع فيه القارات وتنتشر منه الحضارات.

وكان حقا أن تتلاقى مع هذه العجائب في الفسطاط، التي بنيت بمشورة عمر، معان أخرى، أخلد وأبقى على الدهر، فترى العين، يسرة ويمنة "قبة" الشافعي"، و"حلوان" حيث أقام عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين، وحفيد عمر ابن الخطاب. وتلتقي في البصر وفي الفكر، آيتان للإسلام جمع بينهما وبين الرسول من قبل، أحمد بن حنبل، يوم روي عنه عليه الصلاة والسلام: "إن الله عز وجل يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة رجلا يقيم لها أمر دينها" وأضاف أحمد: فكان على رأس المائة الأولى عمر بن عبد العزيز. وأرجو أن يكون على رأس المائة الثانية الشافعي، رضي الله عنه.

وما العمران، ولا الإمامان، إلا أحرف النور، سطرت بها السماء سطرا من أسطار الخلود للإسلام، في هذه البقعة المباركة، من البلد الذي شرف، بذكره في القرآن.